التأثير التبادلى بين التدهور البيئى والفقر

دراسة تطبيقية على الوضع فى مصر*

إكرام إلياس**

انطلاقا من الضرورة والقلق المتزايد على وجود تنمية مستدامة ، نتيجة للتغير المثير فى الفكر الإنسانى ، وسعيا لتعديل أسلوب معيشة الإنسان الفقير ، الذى استمر لحقب طويلة يتعامل مع الموارد بشكل من شأنه أن يستنزفها تارة أو يرشدها تحت ضغط الحاجة ومحدودية المتاح له منها تارة أخرى ، ولمقابلة وجهة النظر العالمية الجديدة فى الحياة الجيدة ، وما دعت إليه من ضرورة أن يمارس الإنسان الحياة اليومية فى ظل اعتبارات مفهوم العدالة ؛ ذلك الذى يضمن التوازن فى المجتمعات بين الأجيال الحالية والمستقبلية مع التركيز على ضرورة مراعاة التنوع، ومعدل الإنتاج ، ومرونة النظام البيئى .

سعى البحث لدراسة مشكلة الفقر فى علاقته بالتدهور البيئى بصياغة مفاهيم محددة ومتفقة مع اشتراطات الفكر الجديد، بحيث يتم من خلالها التعرف على مستويات وأبعاد المشكلة التى نحن بصددها ، والمصاعب التى تحول دون إمكانية قياس الرفاهة الإنسانية والبيئية بدقة على مستوى الفرد والمجتمع ، والوسائل

* ملخص رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات والبحوث البيئية ، جامعة عين شمس ، ٢٠١٠.

** خبير ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

والسياسات التى تتيح تحسين المنظومة المترابطة التى تجمعهما ، والإجراءات التى إن اتبعت لعلاج أى من المشكلتين أو متغيراتهما الوسيطة من شأنها أن تحد تلقائيا من تفاقم الأخرى .

ولما كان المحور الأساسى الذى تدور حوله دوامة الفقر هو غياب الموارد، وكانت الطريقة التى يعالج بها الإنسان هذا الغياب أو الندرة قد تؤدى الى تناقص الموارد أو تعمل على تدهورها بسرعة أكبر من سرعة تجددها ، ولما كانت تأثيرات الفقراء خاصة أكثر حدة فى ممارسة هذا التأثير . إضافة إلى ما تظهره الدراسات من ارتفاع معدلات الخصوبة لدى الفقراء ومن ثم مساهمتهم أكثر من غيرهم فى إحداث التضخم السكانى ، مؤديا على مدى الزمن إلى توزيع نفس القدر من الموارد على عدد أكبر من البشر . وأخيرا ما يستتبع عملية التوزيع وما قد يلحقها من خلل ، الأمر الذى يضع فى أيدى القلة الجزء الأكبر من هذه الموارد ويعرض الباقين إلى الحرمان الشديد ، إضافة إلى لفت الأنظار إلى حق الأجيال القادمة فى التمتع بنصيب عادل من تلك الموارد بالقدر الذى يتيح لهم استيفاء احتياجاتهم ، نصل إلى أن لب مشكلة الفقر يدور حول مكونات المنظومة البيئية .

من ثم يتشكل محور هذه الدراسة حول مدى مسؤولية الفقر عن التدهور البيئى، والعكس مدى تأثير التدهور البيئى على وضع الفقر والفقراء فى مصر . وتبنى هذه الفرضية الأساسية على عدد من الفرضيات الفرعية التى تسعى الدراسة إلى التحقق منها فى الواقع ، منها :

- تؤدى زيادة أعداد الفقراء فى المجتمع الى زيادة الاختلال فى التوازن البيئى وفقا لدرجة حدة الفقر ومدى انتشاره .
- يفرض اختلال التوازن البيئى آثاراً تحد من عجلة النمو وجهود التنمية، كإضعاف إنتاجية العنصر البشرى .

- يسهم التوزيع غير العادل والمتكافئ للموارد فى إحداث قدر من التدهور البيئي بالإضافة لتعميق جذور الفقر واتساعه .
- يعد الجهل ونقص التعليم والمعرفة والتحيز النوعى ضد الإناث قاسماً مشتركاً فى تعميق مشكلات البيئة والفقر .
- يمكن اعتبار المرض أحد أهم المتغيرات الحاكمة فى اكتمال العلاقة التأثيرية بين الفقر والتدهور البيئى .
- نادرا ما يتمكن الفقراء من تقييم وضعهم البيئى أو الاقتصادى ذاتيا .
- يعد ضعف منظومة القيم المرتبطة بدور العمل الأهلى والمجتمع المدنى من العوامل المؤدية لزيادة تردى الوضع البيئى والاقتصادى .

ونظرا لانطلاق الدراسة من المدخل الاقتصادى فى تحليل العلاقة بين التدهور البيئى والفقر، اعتمدت الدراسة على المناطق العشوائية كإطار لسحب عينة البحث ، ذلك أنها تعد مرادفاً لجيوب الفقر من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنها تعانى – من حيث سماتها الإيكولوجية والعمرانية – قدراً عالياً من التدهور البيئى ، وانقطاع السبل التى تتيح لها الحصول على بعض الخدمات العامة .

وفى ضوء ما ذهبت إليه الدراسات السابقة حول تميز المناطق العشوائية بعدة خصائص ، على رأسها ارتفاع الكثافة السكانية على المساحة الكلية للمنطقة ، وارتفاع معدل التزاحم ، وزيادة حجم الأسرة ، كما أن المساكن بها رديئة الإضاءة والتهوية ، وأن البعض من سكانها ليست لديهم دورات مياه على الإطلاق أو لديهم دورات مياه مشتركة ، إضافة إلى مراعاة تمثيل ثلاثة أنماط من المناطق ذات أصول زراعية ، وصحراوية ، وجبلية .

وفى محاولة لاستكشاف واستقراء فرض الدراسة الأساسى وافتراضاتها الفرعية ، تم تصميم أداتين رئيستين يجرى من خلال تطبيقهما الوصول للنتائج المأمولة ؛ وهما :

دليل ملاحظة يراعى : النشأة التاريخية للمنطقة العشوائية – توصيف اجتماعى/عمرانى – طبيعة المناطق السكنية / ووضع المساكن بها – طبيعة النشاط الاقتصادى للمنطقة .

إعداد استبيان مقنن : يطبق على عينة من الأسر الفقيرة ، يرتكز على التعرف على مدى إدراك الفقراء ونظرتهم الذاتية تجاه أحوالهم المعيشية ، وتجاه قضايا الفقر وأساليب تعاملهم مع بيئاتهم المحيطة (المصاعب اليومية التى تواجههم نتيجة وجودهم فى تلك المناطق وأساليب تغلبهم عليها) ، وتقييمهم لأوضاعهم وأوضاع القريبين منهم ، واستطلاع أهدافهم ، وتصوراتهم عن كيفية التغلب على الفقر ، والتعرف على آرائهم حول تحسن أو تردى أحوالهم المعيشية .

ومع كثرة البيانات ، وارتفاع الدلالات الإحصائية على بعض المتغيرات ، وانخفاضها على البعض الآخر ، رأت الباحثة أن تتم قراءة البيانات عبر مؤشرات إحصائية يتم بناؤها فى ضوء أهم المتغيرات تأثيرا وفقا لما أكدت عليه الدراسات ، وبالفعل تم بناء مؤشرين أحدهما لدرجات الفقر ، والآخر لدرجات التدهور البيئى وفقا لما تعانيه أسر عينة الدراسة .

ولاكتشاف تلك المتلازمة بين الفقر والتدهور البيئى فى مصر ساقت الدراسة فصلا تمهيديا حول أهم المفاهيم المرتبطة بموضوع البحث ، وبابين تحليليين للبيانات المستخرجة من الدراسة الميدانية عبر المؤشرين السابق الإشارة إليهما ، نعرضها وفقا لما انتظم عليه التناول :

عرضت الدراسة بداية أهم الدراسات السابقة التى تعرضت لموضوعات الفقر والتدهور البيئى فى مصر ، ثم أفردت جزءا لتوصيف المواد وطرق البحث المستخدمة ، لتوضيح الخطوات التى اتخذت فى سبيل اختيار مناطق عينة الأسر المعيشية التى خضعت للدراسة ، كما استعرضت الأداتين المستخدمتين فى إجراء التطبيق الميدانى على المناطق والمقابلات المقننة لتلك الأسر ، والطريقة المعتمد عليها فى بناء مؤشرات الفقر والتدهور البيئى التى سيبنى على أساسها تحليل البيانات المستمدة من العمل الميدانى .

بعدها ساقت الدراسة فصلا تمهيديا للمفاهيم الأساسية يستعرض أبرز المفاهيم حول الفقر ، وكذا علوم البيئة فى تطورها عبر عقود متصلة متبنيا دراسة النقاط التالية :

التدهور البيئى : ويضم ثلاثة محاور ؛ الأول : التعريف بالبيئة ومفهومى التدهور والتلوث البيئى ، ومدى ارتباطهما بالاستدامة – الثانى : التوازن البيئى والأسباب التى تؤدى إلى نفاد الموارد والتلوث – الثالث : الأبعاد الحالية لمشكلة التدهور البيئى ومظاهره .

الفقر : ويتناول محورين ؛ الأول : مفاهيم ونظريات الفقر – الثانى : بعض أساليب القياس ، يليها أهم خصائص الفقراء والأسر الفقيرة .

أوجه الارتباط بين المفاهيم الأساسية فى محورين ؛ الأول : المنظور الدولى لمشكلات البيئة والرؤية العالمية حول الفقر – الثانى : الاعتبارات المحلية فى الربط بين متغيرى الفقر والبيئة .

ومن خلال استعراض النتائج ومناقشتها ، اهتمت الدراسة بتوضيح محاور رئيسة أولها : تأثير التدهور البيئى على مشكلة الفقر فى مصر من خلال استعراض

عوامل الإخلال بالتوازن البيئى . وثانيها : التعرف على (تأثير فقراء العينة على الموارد سواء استنزاف أو ترشيد ، وأوجه زيادة الأنواع المختلفة للتلوث) ، ومدى تأثير هذا الإخلال على الفقر والفقراء (برصد مظاهر الإفقار ، ونواتج التدهور المؤدية لتدنى نوعية الحياة ، وإمكانية تحقيق تنمية فى ظل التدهور) ، وتوضيح الحلقة المفرغة التى تربط التدهور البيئى بالفقر فى مصر والعوامل التى تستمد تلك الفجوة تجددها من خلالها (أساليب توزيع الموارد – تأثير التدهور البيئى على ثقافة الفقراء – تأثر أوضاع الفقراء الأخرى بالتدهور البيئى) .

ثم تعرضت الدراسة بعد ذلك لتأثيرات الفقر على البيئة والمتمثلة فى ندرة الموارد وما يستتبعها من انخفاض مستويات المعيشة (مستويات الفقر وخصائصه – مشكلة الاستهلاك ونوعية السلع والخدمات المستهلكة – الأنشطة الاقتصادية للفقراء) ، كما تتجسد فى النمو السكانى كمظهر للفقر بما يمارسه من تأثير على البيئة (من خلال تأثير الكثافة السكانية ، التوزيع النسبى للفقر بين فئات النساء والأطفال) ، بالإضافة إلى مشكلة تبنى النمط العشوائى (بكل أعباء التوسع الحضرى ، وتقديم رؤية عامة للإسكان العشوائى ، والتعرف على وعى مفردات العينة بالأنماط السلوكية العشوائية).

وقد خلصت الدراسة بعد التطبيق على ثلاثة مناطق معتمدين فى السحب على اختيار محافظة واحدة عشوائيا من بين المحافظات الحضرية ، وأخرى من بين محافظات الوجه البحرى ، وثالثة من بين محافظات الوجه القبلى ، والتى أسفرت عن اختيار المحافظات التالية عشوائيا :

- المحافظة الحضرية هى محافظة القاهرة ، ويمثلها منطقة عزب الصفيح سابقا ومدينة الوحدة حاليا .
- محافظة الوجه البحرى هى محافظة القليوبية ، ويمثلها عزبة الصعايدة المطلة على ترعة الشرقاوية .

- محافظة الوجه القبلى هى محافظة الجيزة ، تجمع عشوائى يطلق عليه كوم الهوى مقام على أطراف صحراء سقارة .

وقد خلصت الدراسة من خلال التطبيق على عدد ٣١٤ أسرة موزعة بالتساوى تقريبا على المناطق المذكورة إلى :

- أوضح المؤشرين اللذين تم بناؤهما أن العينة تتوزع بنسبة (٢: ١) تقريبا مابين الأسر الواقعة على خط الفقر أو أسفله ، والأسر الواقعة أعلاه، بينما يتوزع التدهور البيئى بين الأسر بنسبة (١:١) تقريبا بين الواقعين على خط التدهور البيئى أو أسفله ، والواقعين أعلاه .
- قد يولد الفقر لدى الفقراء قدرة على تعظيم الاستفادة من الموارد المحدودة .
- يصاحب الزيادة فى نسبة الفقر زيادة مقابلة فى نسبة التدهور ولكن بشكل متناقص .
- قد تعظم الأسر الواقعة أدنى خط الفقر الاستفادة من المعطيات البيئية بإعادة التدوير والاستخدام فيتحسن فى المجمل مستواها البيئى ، وقد يرجع ذلك إلى أنه مع انخفاض المستوى المعيشى يبتكر الفقراء وسائل تساعد على أن يستبدل بالأدوات المكلفة غيرها الأقل تكلفة ، والأمر الآخر أنه مع انخفاض الدخل قد تستخدم الأسرة ذات المنتج أو المورد أكثر من مرة قبل أن يستنزف نهائيا .
- يتعرض الفقراء أكثر من غيرهم للمخاطر الصحية المترتبة على التلوث ، ومن ثم إهدار المورد البشرى والتأثير فى كفاءته ، كما أن ما يتحملونه من نفقات صحية يزيد مع انخفاض مستواهم المعيشى، وإمكانية أن يفاقم ذلك مع وطأة الفقر نتيجة التأثير السلبى للمشاكل الصحية على أدائهم لأعمالهم التى تعد المصدر الرئيس للدخل .